نحن و الذئاب

كمال لازار بطرس

يذبحوننا، ويتباكون علينا..

يقتلوننا، ويسيرون في جنازاتنا..

يرغموننا على ترك ديارنا، ولا يتأخرون لحظة عن التنديد والشجب والاستنكار..

يدّعون حمايتنا، وينقضّون علينا بطعنات غادرة من خناجرهم المسمومة..

يتظاهرون بأنّهم الرعاة الساهرون على مصالحنا وأمننا وسلامتنا، وإذا بهم يتحولون إلى ذئاب مسننة الأنياب لقضمنا ونهش لحمنا النيِّء.

كالغنم.. أصبحنا كالغنم..

نعم، نحن الشعب الغنم.. كلنا غنم.. ويا ليتنا..

لا يتصور أحد انّه بعيد الشبه، أو فوق هذا التشبيه، أو تحت هذه الشبهة..

فالشعب الذي تُصادر أرضه، وتُنتهك حرماته، وتُسلب إرادته، وتُهان كرامته، ماذا يكون؟

والشعب الذي يُطرد من دياره، ويُهجَّر قسراً على مرأى من العالم، ماذا يكون؟

والشعب الذي يُقطِّعون أوصاله، ويعلِّقونه للبيع أو للمقايضة في الأسواق المحلية والاقليمية والدولية، ماذا يكون؟

بالأمس قتلوا علماً من أعلامنا الكبار، ورمزاً رفيعاً من رموزنا الروحية.

واليوم تنهمر قنابل الوجع مرة اخرى فوق رؤوسنا.

إنَّ ما حدث في الموصل في الأيام القليلة الماضية هو خارج حدود السلوك البشري، وكل الدلائل تشير الى أنّ سفر الآلام سيطول، وستشتد العواصف والمحن. ففي هذا البلد كل شيء طائفي ومذهبي، حتى الهواء صار طائفياً، ولم يبقَ للحق فيه أي حق، حتى بات الحق بلا حق.

وهذا الشعب، ضاقت به السبل. إلى أين يولّي الأدبار؟

ماذا يفعل؟ ماهي الخيارات المتاحة أمامه؟

هناك من يقول: ليعتصم أو يتظاهر.. أو يحتج على الأقل.

وهل سمعتم في حياتكم أنّ قطيعاً من الأغنام يعتصم ويحتج؟!

وهناك رأي آخر يدعو إلى الصمود، والتشبث بالأرض، حتى يأتي الفرج وينبلج الفجر.

وأي فرج سيأتي بعد كل الذي جرى.. وصمود الناس هو النزق بعينه؟!

وهناك من ينادي بالرحيل أو الهجرة إلى عالم آخر، عالم كلّه ألفة ومحبة وتسامح وفرح، ويرى هؤلاء أن لا جدوى من البقاء هنا، فلم يبقَ في هذا البلد أيُّ نفعٍ أو مُرتجى أو غاية. هنا، يُستعان بالسلاح الثقيل في القضاء على الفراشات الملونة. هنا، لافرق بين الحمام الوديع وبوم الشؤم. هنا، تُباد كل الأشياء الجميلة، فلا جمال بعد اليوم، ولا بسمة، بل دمامة، ونحيب، وبكاء، وصياح، ونواح، وموت أسود.

ولكن إلى أين يتجه ويهرب، وكل ما سيجده لاحقاً سيشعره بالمهانة والضياع والتشرّد، لأنّه ترك دياره، وتخلى عن الأرض التي تربى بين احضانها وترعرع على ترابها؟.

قد لا نكون نحظى بشرف التشبّه بالغنم في ثلاثة أشياء:

في أنّ الغنم لاتتنافس ولاتتصارع ولاتتقاذف بالكلام، ولا تستنزف بعضها بعضاً، لا جسدياً ولا مادياً..

في أنّ الغنم وإذ ذُبحت، فهي تُعلَّق في أمكنة نظيفة لائقة، مبرَّدة، على عكسنا نحن الذين نُذبح ونُرمى في مزابل الطرقات والأزقة، ولا من ينتشلنا أو يهتم لأمرنا..

وأخيراً...

صحيح أنّ الأغنام ذاهبة في النهاية إلى المجزرة، ولكن ما نحسدها عليه، هو أنّها تلقى كل الاهتمام و العناية، والرعاية اللازمة من قبل جزّاريها، قبل أن يذبحوها..

أمّا نحن، فإنّ جزّارينا يتعمّدون تعذيبنا، ويتفننون في الحاق الأذى بنا، قبل أن ينتزعوا ارواحنا ويقضوا علينا!.

الموصل في اليوم الثاني

"لم يكن المنظر منظر المذبحة الرهيبة التي حدثت في ليلة النصر، بل كان منظر السكون الرهيب الذي ساد المدينة (طروادة) في صباح اليوم الثاني"
حَدّثَ احد الشيوخ من اهالي مدينة الموصل:
الالياذة – لهوميروس

ان عدوى الفوضى باتت تهدد المدينة ايام المذابح ضد المسيحيين اواخر ايام الخلافة العثمانية،وفي عصر احد الايام كانت ثلة من النقارين الذين يعملون في نظم الحجر من المرمر والحلان من المسيحيين عائدين من عملهم، احتجزهم الغوغاء في منطقة باب البيض غربي المدينة، وارادوا ذبحهم اسوة باخوانهم في تركيا المجاورة، فتصدى لهم وجهاء المحلة وعقلاؤها الذين لايخلو منهم زمن، ووضعوا الرجال المسيحيين في مقهى مجاور ينتظرون امراً من الباب العالي، مقر الحكومة العثمانية في الاستانة – اسطنبول الحالية– ليبت في شأنهم. ثم جاء الامر بعدم المساس بمسيحيي الموصل، عملاً برأي وجهاء المدينة الذين لم يوافقوا على ذبح اخوانهم في العيش المشترك، وهنا صاح الغوغاء: والله سوف تبقونها عاصيةً في حلوقنا – اي الرغبة في قتل المسيحيين – والله وحده يعلم من اين جاءت هذه الرغبة لدى الغوغاء خلافاً لعموم اهل الموصل من المسلمين.

واليوم، يكون قد مر شهر تقريباً على مسلسل الاحداث الجديد والذي ادى الى هجرة المسيحيين الجماعية.ذهبت الى مدينتي مصدّقاً تطمينات الحكومة باستتباب الامن وقرب عودة العوائل. و اول مكان ذهبت اليه كان جامعة الموصل.

ابرزت هويتي الى الحرس الواقف على المدخل، ولما علم انني مسيحي قال:

– تفضل عمي اهلاً وسهلاً.

حتى انه لم يقم بتفتيشي كما يقتضي الامر.

سرت في الشارع الداخلي الرئيس باتجاه احدى الكليات، كانت مظاهر الطلبة والطالبات اسلامية تامة، فلا سفور ولا اختلاط، ومنظر الرجال الملتحين طاغٍ بسبب تحلق الشباب حولهم وتصدرهم للكلام. في مبنى رئاسة الجامعة وفي صالة الاستعلامات، جلس بعض الرجال والنساء بحجاب يستمعون الى تلاوة من القرآن الكريم والسكوت مخيم كأن الناس في فاتحة. ولكن على روح من؟ والله ما تخيلتها الا فاتحة على فقدان ذلك المكوّن الجميل من ابناء الموصل الا وهو (المسيحيون) .

موظفة شابة مسلمة حلت محل سابقتها المسيحية المنقطعة عن الدوام بسبب الاحداث، استقبلتني بحبور ولهفة، وراحت تسأل عن الاوضاع وعن صديقتها المسيحية وتتمنى لنا قرب العودة. طلبت اليها ان تخبر مسؤولها – الدكتور – عن حاجتي، فقال لها:

– دعيه ينتظر فانا ايضا اريد ان اراه..

دخلت غرفته بعد ان انهى اعماله مع الاخرين، فبقينا لوحدنا، هنا كانت مواجهة انسان لانسان من دون كوامن ولا خلفيات تاريخية مؤلمة. لقد تقابلت وهذا الرجل الجليل كملاقاة غيمة من الغبار الكوني لاختها قبل تكون السُّدُم والنجوم والكواكب.

لقد اخجلني هذا العالم الوقور بعواطفه ومحبته الصادقتين، واسفه لكل ماحدث . كانت الكلمات تنهمر من فمه كالشلالات : – عودوا– انتم اهلنا واخوتنا، بيوتنا مفتوحة لكم نحن نحميكم..

ومثله فعل الموظفون والموظفات الذين واللواتي ارسلني اليهم لاتمام معاملتي. اذن لماذا حدث كل هذا؟

في عام ١٩٥٨ حدثت ثورة ١٤ تموز والتي جاءت بالحرية للشعب العراقي، وعلى اثرها وبعيد قيامها باشهر، تم اضطهاد المسيحيين ثم تهجيرهم واغتيالهم في الموصل.

والان وبعد خمسين عاماً تأتي الحملة ضد المسيحيين مرة اخرى اثر قيام الديمقراطية كما يفترض.

فهل المسيحيون هم الضحية البشرية الابدية على مذبح الحرية والديمقراطية؟!

ابو يوسف/ عنكاوا

دربنا طويل

اعداد: ابو لاماسو

هذا الزمن الذي نعيشه زمن جلد الذات. العراقيون يتكلمون فيما بينهم ويقولون نحن وحوش وهمج ونحتاج صدام حسين ثانٍ . تسمع اهزوجتهم في الشارع ينشدون "صدام حسين يلوق (يليق) النا" .

الفلسطينيون يقولون نحن ضحايا الفرسان الثلاثة، الفاءات الثلاثة:

فوضى، فساد،فلتان. لا اريد ان اعد واستعرض ما اصبح كل شعب من العرب والكرد والتركمان يقول عن نفسه. كل يواصل جلد نفسه.

يقوم هذا النقد الذاتي، جلد الذات هذا، على انكار وجود الوطنية، عدم الانتماء للوطن او الاخلاص له او ترجيح مصالحه على المصالح الفردية. هذا ما نقوله. قادتنا ومواطنونا تنقصهم روح الوطنية. ننسى ونحن نجلد انفسنا ان روح الوطنية ليست قيمة ازلية ابدية، لايتجاوز عمرها بضعة قرون.

وبالنسبة لنا، نحن استوردناها من الغربيين ضمن ما استوردناه من روح الديمقراطية والقومية والفاشية والاشتراكية وسواها. اساس الانتماء والولاء عندنا، كما عند كل خلق الله، هو الانتماء للذات، اعني مراعاة الفرد لمصلحته وذاته. يأتي بعد ذلك ولاؤه لأسرته، ثم لقبيلته وحارته ومدينته. هناك ايضا الولاء لراية الدين. الولاء للوطن شيء جديد نشأ ونما مع نشوء ونمو الرأسمالية والصناعة، اي منذ القرن الخامس عشر وكانت جاندارك اول من حمل رايته عندئذ. وطنية الغربيين التي تبهرنا لايتجاوز تاريخها خمسة قرون. نمت نموا عضويا تدريجيا عبر هذا الزمن الطويل. قصة الوطنية عندنا مثل قصتنا مع الديمقراطية،شيء جديد علينا. هكذا ادرك صدام حسين اولوياته بادىء ذي بدء وحكم في اطارها اولا نفسه هو، تأتي بعد نفسه اسرته، ثم عشيرته آل مجيد، ثم قريته العوجة واخيرا مدينته، تكريت. هذا هو التسلسل التاريخي المعول عليه. مصيبته هو انه حاول ان يخرج عن هذا التسلسل فراح يزج نفسه في اطر الوطنية ويأخذها مأخذ الجد،هجم على ايران ثم الكويت ثم مضى يتحدى امريكا والغرب ويهدد اسرائيل بالفناء والصواريخ. هذه هي مصيبتنا معه. فلو انه حصر اهتماماته بنفسه واولاده وعشيرته لما وقعنا في اية مشاكل. حكمه حكم ظالم ودكتاتوري ولكننا معتادون على ذلك، لاجديد في الأمر .

سيقول القارىء هذا كلام كله من باب القشطينيات التي يسرح ويمرح فيها هذا الكتاب بعيدا عن اية مسؤولية. ولكنني اتحداه في ان يأتيني بأي شيء من تراثنا فيه اية اشارة للوطنية. المتنبي لم يتكلم الا عن نفسه. والفرزدق يتكلم عن عشيرته، وامرؤ القيس يطلب ملكا او يموت فيعذرا. وعمرو بن ابي ربيعة مشغول بعشيقاته. حفظونا في المدرسة قصيدة بن الرومي، ولي وطن آليت الا ابيعه، حفظناها دون ان يقول المعلم لنا ان الشاعر كان يقصد بالوطن هنا بيته الذي عرضوه للبيع بالمزاد.

هذه هي المفارقة. الغربيون بنوا اوطانهم وامبراطورياتهم ثم تكلموا عن الوطنية، ونحن نتكلم عنها دون ان نبني حجرا منها. انها عملية ديناميكية تستغرف زمنا ، قل خمسمائة سنة كما حصل للغربيين .

صفحة اخرى من صفحات جلد الذات.

من كتاب خالد القشطيني، ايام عراقية

ومضة

الجامعة في التاريخ

إذا أردنا أن نعرف كيف يجب أن تدار الجامعات، علينا أولاً أن نفهم ما هي الجامعة. فمِن يُمن الطالع أنه بمقدورنا أن نعرّف الجامعة، أقلّه في الغرب، من خلال تاريخها. يمتد تراث هذه الجامعات لأكثر من ٩٠٠ سنة. أوّلها هي بولونا، والتي تأسست حوالي سنة ١١٠٠ وذلك بعد أن استعادت الحركة التجارية في ايطاليا عافيتها، عقب انهيار الإمبراطورية الرومانية. فبسبب غياب التشريعات والقوانين التجارية، توجه بعض التجار نحو التخصص في القضايا التجارية المتداولة في المحاكم، وعملوا على تأسيس مجلس لكلية يتعلمون فيها المهنة الجديدة، وهي المحاماة. ظهرت مؤسسات أخرى وبمبادرات مماثلة في بادوا، مونبيليه ومدن أخرى في حوض البحر المتوسط. إذ كان الطلبة أنفسهم يديرون هذه الجامعات ويعينون لها الأساتذة. شيء من ذلك التقليد لا يزال باقياً في بعض منها الى اليوم. لقد تم إنشاء عدد آخر من الجامعات في أوروبا، مثل باريس، أوكسفورد وكمبرج. وهذه أسسها الأساتذة، ولا يزال بعض منها يحتفظ بتقاليد تذَكّر بالإستقلال الذاتي الذي تمتعت به هيئاتها التدريسية. وأخيراً، في القرون الوسطى قامت الكنيسة أيضاً بتأسيس الجامعات وذلك عن طريق تطوير مدارس التراتيل في بعض الكاتدرائيات. وهكذا فعل ملوك وأباطرة آخرون أيضاً.

لم يكن لجامعات القرون الوسطى قصب السبق في إرساء قواعد التعليم العالي في أوروبا؛ بل كان هناك معلمون ذوو تحصيل عالٍ، يعملون كأفراد اينما دعت الحاجة. إضافة إلى ذلك كانت توجد كليات متفرقة للتعليم العالي، وإن كانت شهاداتها غير معترف بها إلاّ محلياً. بينما، مع التأسيس في بولونا، ظهر مفهوم جديد ألا وهو الجامعة، المعترف بها من قبل البابا والإمبراطور. فالجامعة إذن أصبحت هي تلك المؤسسة التي يتم الإعتراف بالشهادات التي تمنحها في طول أوروبا وعرضها.

لما كانت هذه المؤسسة قد خضعت لترتيبات إدارية معينة، فأعرب بعض الأساتذة عن خشيتهم من حصول مساومات على حساب الحرية الفكرية وفعاليتها. وكانت تلك المخاوف في محلها. بالرغم من أن الجامعات الأولى كانت قد تأسست بكيانات مستقلة، إلا أن السلطات الدينية والدنيوية، رأت فيها منافساً حقيقياً في إحتكار سيطرتها على مسرح الفكر آنذاك. شيء من هذا القبيل يُفهم من الكلام الذي وجهه البابا بونيفيسيوس الثامن سنة ١٢٩٤ مخاطباً أساتذة جامعة باريس: "... يبدو أنكم تعتقدون بأن العالم يجب أن يدار بموجب عقلانيتكم، وهو غير صحيح. فإنه مؤتمن الينا وليس اليكم ..." . في مناخ كهذا تحولت جامعات القرون الوسطى إلى مؤسسات إنصبّ جلّ إهتمامها على جدالات لا طائل منها. وكمؤشر للمستوى الثقافي يومذاك، ما آل إليه مصير كل من أبدى تساؤلا حول موضوع الحكمة الإلهية، أمثال: روجر بيكون الذي أدخِل السجن سنة ١٢٧٧ لأنه قال بضرورة الرجوع إلى الإختبار بدلا من الإكتفاء بالحجة الكلامية فقط، جون وايكلف الذي أُعلن هرطوقياً متشدداً في سنة ١٤١٥، جوردانو برونو من جامعتي باريس وبادوا الذي أعدم حرقاً سنة ١٦٠٠ بسبب تساؤلاته عما إذا كانت الأرض هي في مركز الكون. وفي سنة ١٦٣٣ أستدعي غاليليو للمثول امام المحكمة.

الكنيسة البروتستانتية، هي الأخرى، لم تكن أكثر ليبرالية في هذا الأمر. كالفن، مثلا، في سنة ١٥٥٣ قرر حرق سيرفيتوس، لأنه كان قد أبدى تساؤلا حول موضوع الثالوث الأقدس.

بالطبع كان هناك أيضاً حكام متنورون حريصون على الدفاع عن حرية الفكر. ففي سنة ١١٥٨ قام الإمبراطور فردريك الأول، بسَن دستوره الشهير بخصوص حماية حرية الفكر في جامعة بولونا. غير أن مكاسب من هذا القبيل عندما تُمنح من قِبل إمبراطور، لا تلبث أن تُلغى من قِبله أو من يليه، وهكذا كان.

إن جامعات أوروبا في القرن الثامن عشر ما عادت تشكل مراكز فكرية ذات أهمية. فأماكن مثل أوكسفورد وكامبرج إقتصرت على تدريس بضع مئات من طلبة اللاهوت، ليدخلوا في خدمة الكنيسة.

في الحقيقة، كانت قد قامت نهضة وجيزة في غضون القرن السابع عشر، وذلك بسبب ضعف السلطات المركزية، برز فيها رجال أمثال نيوتن في كامبرج، وهوك في أكسفورد. إلا أنها سرعان ما أُخمِدت من قبل الكنيسة في انكلترا وتولى مهام التدريس والإدارة فيها رجال دين. بالطبع لم يتوقف الناس عن طلب المعرفة. فظهرت مدارس عامة في ايطاليا تقوم بتدريس الرياضيات، إدارة الأعمال، المحاسبة، الملاحة وفنون التجارة الأخرى. وكانت هذه المدارس تقوم بنشر أبحاثٍ مفيدة تجتذب الطلاب من جرّائها. كما كان هناك أفراد متميزون في مجال البحوث، إلا أن البعض منهم تعرض إلى التهميش. بدأت تظهر في بريطانيا أيضاً أصوات تنادي بالإصلاحات في الجامعات. ففي سنة ١٦٠٥ دعا فرانسيس بيكون إلى ايجاد جهة بديلة تقوم برعاية المنح الدراسية والبحوث. لكن نداءَه هذا لم يلقِ أذاناً صاغية في حينه، غير أن الجمعية الملكية التي تأسست سنة ١٦٦٢ بدأت تدعم مراكز التعليم العالي.

إن الجامعات في القرون الوسطى، وإن كانت قد نشأت أصلا كمؤسسات مستقلة، إلا أن ابداعاتها الفكرية أثارت هاجس السلطات الدينية والزمنية، فعمدت على تحييدها.

سعيد لوقا/ (تلخيص وترجمة)

*** أصل المقال بقلم د. تيرنس كيلي، جامعة بكنكهام، أوكسفوردشاير ٢٠٠٧.**